مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ٩، العدد ٣٤ (ربيع ١٩٩٨)، ص ١٤٨

الشهادة السابعة[١]

"... لكن صورة قريتنا لم تفارق عينيّ قط"

- الاسم: جميل عبد الحق
- العمر: ٦٥ عاماً
- مكان الإقامة الحالي: مخيم اليرموك/دمشق
- البلد الأصلي: عين غزال/قضاء حيفا
- تاريخ الاحتلال: ٢٦ . ١٩٤٨/٧/٢٧

لا تستطيع ذاكرتي اليوم، على الرغم من مرور خمسين عاماً على نزوحنا عن عين غزال، الفصل بين ذكرياتي الشخصية وذكريات قريتنا عين غزال. ففي ذاكرتي يتداخل ما هو شخصي مع ذكريات القرية: الأهل والجيران؛ الأصدقاء ورفاق مدرستي الابتدائية؛ بيتنا المبني من الحجر والمؤلف من طبقتين؛ مقام الشيخ شحادة الذي يقولون في القرية إنه جد عائلتنا، عبد الحق. وقد أخذ أخي الخامس، شحادة، اسمه من اسم الشيخ شحادة، جدنا الأكبر الذي ما زال مقامه قائماً كما عرفت، وهو شاهد على ما كان لقريتنا من إرث في حياة رخية وادعة من جهة، وكفاح لم يتهاون مع عدو عمل جاهداً للاستيلاء على بلدنا وتدمير حياتنا، وهو إرث في صورة يرثه أولادنا من بعدنا. وفي الغالب، فإنهم سينقلونه إلى أبنائهم من بعدهم إلى أن تكتمل الحلقة، ويعود أولادنا . ربما أحفادنا . إلى عين غزال ذات يوم، كي يعيدوا بناء قرية هدمتها الهمجية وطردت أهلها، كي يعيدوا بناء عين غزال وهي اسم على مسمى.

أتذكر الآن، وكان عمري آنذاك خمسة عشر عاماً، كيف اشترى أهالي قريتنا بواريد وذخائر من أهالي قرية الطيرة عندما مر الأخيرون بالقرية إلى الشتات. كما أتذكر الرجل الراحل سليمان الصعبي الذي ذهب إلى سورية على رأس لجنة من القرية لجلب السلاح والذخائر. لقد جمعنا . بمفاهيم تلك الأيام . ترسانة فيها أكثر من أربعمئة

[١] أعدّها فايز سارة. وقد أُجريت المقابلة في دمشق، في شباط/فبراير ١٩٩٨.

بارودة حديثة، إضافة إلى رشاشات برن، وعشرات من رشاشات.. ومدفع هوشكيس وكميات من الذخائر تم خزنها في بيتنا تحت حراسة دورية ومنظمة من الشبان الذين أدوا الدور الأهم في صمود عين غزال في حرب غير متكافئة.

لقد أتاحت لنا هذه "الترسانة" أن نحقق انتصارات معروفة على الهجمات التي قام اليهود بها على قريتنا. وفي واحدة من هذه المعارك استولينا على خمس عشرة سيارة من المهاجمين اليهود وجلبناها إلى القرية، وبقيت فيها إلى حين مغادرتنا عين غزال. وأتذكر الآن ذلك الفرح الغامر الذي عم أهالي عين غزال بأسر الآليات الإسرائيلية.

ذكريات الأسبوع الأخير في عين غزال ما زالت شريطاً أستعرضه كما لو أنه حدث أمس: أفشلنا محاولتين قام بهما اليهود لاحتلال القرية في أواسط حزيران/يونيو والأسبوع الأول من تموز/يوليو. وقد استغل اليهود الهدنة الأولى وحشدوا قواتهم بمشاركة المدفعية من البر والبحر والجو، إضافة إلى المصفحات، في هجوم واسع على القرية في النصف الأخير من تموز/يوليو. وقد أوقع هجوم الطائرات الكثيرين من القتلى والجرحى، ذلك بأن الأهالي اعتقدوا أن الطائرات هي طائرات الأمم المتحدة التي جاءت تستطلع أحوال القرية، بناء على اتصال من الجيش العراقي. غير أن الطائرات فاجأتهم وألقت قنابلها فقتلت أربعة عشر شخصاً، بينهم جميل أبو دانة ومحمد عبد الهادي، وجرحت الكثيرين وهدمت الكثير من البيوت، الأمر الذي أدى إلى مغادرة سكان القرية إلى أحراج الزيتون.

بين أشجار الزيتون في ظاهر قرية عين غزال، عاش الأهالي صورة مصغرة لبؤس نزوحهم التالي. إذ تحت تلك الأشجار انتشر الأطفال والأمهات والشيوخ الكبار، إلى جانب المواشي من أغنام وأبقار وحمير وخيل. وبقليل من التجهيزات الخاصة بالمنام والطعام والشراب، وبكميات قليلة ومقننة من المواد الغذائية، عاش القابعون تحت الأشجار عدة أيام في حالة من الرعب والخوف.

أمّا شبان القرية فكانت لهم حال أُخرى، إذ كانوا على خط المواجهة، وفي الحراسات حول محيط القرية. وبين وقت وآخر كان يذهب بعضهم إلى بيته على عجلة وبحرص شديد لإحضار مؤن أو ثياب، أو غير ذلك.

وأتذكر الآن، بعد خمسين عاماً، كيف فكرت وانطلقت نحو بيتنا (بيت سعيد عبد الحق) كي أجلب المذياع، وهو واحد من ثلاثة أجهزة كانت في قريتنا: أحدها في بيت

المختار، والثاني في مقهى عين غزال، والثالث في بيتنا. وقد حفرنا حفرة بالقرب من البيت وخبأناه كي نستعمله عندما نعود إلى القرية. لكنني لم أستطع الوصول إليه قط بسبب كثافة الرصاص الذي أخذ يلاحقني، فاضطررت إلى تركه، بعد أن تأكدت أن اليهود صاروا في بعض أزقة القرية، وداخل بعض بيوتها.

في عصر الرابع عشر [بدأ الهجوم اليهودي لاحتلال القرية في ١٩٤٨/٧/٢٥، واحتُلت ليل ٢٦ . ١٩٤٨/٧/٢٧] من رمضان . على ما أذكر . بدأت رحلة المنفى بالنسبة إلى أهالي عين غزال وبعض أهالي إجزم الذين شاركونا معركتنا الأخيرة. كنا في حينه وصلنا إلى أسوأ أحوالنا: هجمات مكثفة من العدو؛ نقص في الذخائر؛ رعب وخوف بين الأطفال والنساء المنتشرين في أحراج الزيتون؛ ثم دخول قوات اليهود القرية وسيطرتهم على بيوتنا بما تحتويه من مقومات العيش من مؤن وثياب وغير ذلك.

وسط تلك الأجواء بدأ شتاتنا مسيرته. القليل القليل من الطعام والثياب والتجهيزات، والكثير من الخوف والارتباك، هذا كل ما كان معنا ونحن نتجه في خط طويل غير منتظم يضم آلافاً من البشر ترافقهم بعض حيواناتهم في الطريق إلى نابلس عبر قريتي عارة وعرعرة. وفي الطريق أخذت قطعان الأغنام والبقر تضيع عن أصحابها، كما أن الأولاد صاروا يضيعون عن أهاليهم.

أتذكر الآن كيف ضاع أخي غازي، وكان عمره ثمانية أعوام. إذ بعد استراحة قصيرة بالقرب من صبارين، على الطريق إلى نابلس، انطلقنا ثانية، وبعد وقت اكتشفت أن غازي لم يكن معنا. عدت أكثر من كيلومتر باحثاً عنه ومنادياً بأعلى صوتي، لأجده نائماً من شدة الإجهاد والتعب. كما أن أخي الأصغر فاروق، وكان عمره عاماً واحداً، كدنا نفقده هو الآخر في رحلة الشؤم تلك، عندما وضعناه وسط أجمة من الذرة البيضاء العالية، ولو لم ننتبه في اللحظة الأخيرة لكان ضاع كما ضاع آخرون من سكان قريتنا وقرى فلسطينية أُخرى، إذ انفصل أبناء عن عائلاتهم وضاعوا، ووجدهم آخرون مصادفة، وقاموا برعايتهم بالقدر الممكن والمتاح، ثم أوصلوهم إلى أهلهم.

كان لرحلة العذاب بين عين غزال ونابلس جوانب أُخرى، أحد تجلياتها ما حدث لمجموعة من سكان قريتنا بعد أن غادرنا في ذلك الصف الطويل وغير المنتظم من البشر ووصلنا إلى قرية كفر كنا، وهي قرية عربية كانت سقطت في أيدي اليهود

حينها. كانت الرشاشات الصهيونية تطلق على النازحين من جهة، بينما كانت أصوات أُخرى تنادي بالأسماء: "تعال يا محمد... تعال يا أحمد.. نحن عرب.. تعال نحميك." وفعلاً، اتجه بعض الناس إلى مصدر الصوت، فوقع في أسر اليهود. ومن هؤلاء زوجة قريبنا عبد الله عبد الحق، وابنتها آمنة عبد الحق، ومحمود صالح عبد الحق، وآخرون. أبقى اليهود البعض أسرى، وسلموا البعض الآخر إلى أقارب لهم من قرية الفريديس، وهي قرية عربية صغيرة بقي أهلها في فلسطين. أمّا الأسرى فتم إطلاقهم في وقت لاحق، والتحقوا بأهلهم وذويهم الذين توزعوا على الأردن وسورية والعراق، وهي الدول التي توزع عليها أهالي قريتنا عين غزال.

حياة شتاتنا التي بدأت في نابلس كانت قاسية، عائلة كبيرة العدد: الأب والأم وأربع بنات وسبعة من الأولاد الذكور، بينهم شابان أنا وأخي الأكبر لطفي الذي أصيب بجروح في عين غزال قبل خروجنا، وتم إدخاله مستشفى الجيش العراقي في نابلس، ليبقى فيه تحت الرعاية الطبية عدة أسابيع.

اعتادت عائلتنا العيش في بحبوحة، وفجأة صارت بلا بيت، وبلا مال . إلاّ قليله . وبلا طعام أو كساء. وأتذكر الآن أن كيسين من الثياب جلبناهما من البيت عند خروجنا إلى أحراج الزيتون في عين غزال، ضاعا في الطريق بين عارة ونابلس، فصرنا بلا ثياب سوى تلك التي تستر أجسادنا.

تلك البداية الصعبة للشتات دخل عليها عاملان خففا من بؤسها وصعوبتها في نابلس. كان العامل الأول أن لوالدي شريكاً وصديقاً من أبناء المدينة، فلم يتأخر في استقبالنا وإسكاننا مجاناً. أمّا العامل الثاني، فكان ظهور الشيخ مشهور الضامن أمامي، الذي كان مديراً للمدرسة التي كنت أتعلم فيها في عكا قبل عام من نزوحنا، وهو صديق لوالدي أيضاً. كان الشيخ في حينها يرئس جمعية خيرية في نابلس، وقد ساعدنا قدر ما استطاع في سياق مساعدات قدمتها الجمعية للنازحين القادمين من المناطق الفلسطينية المحتلة والذين وصلوا إلى نابلس.

لعل من حسن الحظ أن اختارت عائلتنا، بعد مغادرتنا نابلس، التوجه إلى سورية في حين توجه بعض أهالي قريتنا إلى العراق إذ أبدى الوصي على العرش الأمير عبد الإله رغبته في استقبال أهل عين غزال بعد ما عرفه عن شجاعتهم وصمودهم في مواجهة اليهود، عندما التقانا في نابلس يومها. والآن أفكر، ربما كان

هدف دعوة عبد الإله أهالي قريتنا إلى الذهاب إلى العراق إبعادنا إلى أقصى ما يمكن، فننسى بالإقامة هناك عين غزال، وربما ننسى فلسطين كلها!

رحلة البؤس إلى دمشق لا حدود لبشاعتها، إذ انحشر البشر في سيارات شاحنة ما بين سبع وثماني عائلات في كل منها. لقد تجمعت كتل من اللحم والعظم يجللها البؤس والفاقة والخوف، في كل واحد من صناديق السيارات التي ضمت أطفالاً ونساء، شيوخاً وشباناً، مع أمتعة بائسة وحاجات كنا التقطناها كيفما اتفق ونحن نغادر بلدتنا. كان ما زال شبح الخوف والرعب يسيطر علينا، وأكثر منه كان الخوف من مستقبل مجهول لا نعرف فيه إلى ما سيؤول إليه حالنا.

عندما حطت رحالنا في ساحة قريبة من دار المعلمين في دمشق، وكنا صرنا على أعتاب الشتاء، نُصبت خيام في هذا المكان لاستقبال النازحين. وهناك ظهرت خيارات محدودة أمامنا: متابعة السفر إلى حلب، أو اللجوء إلى المساجد في دمشق، أو استئجار بيت ما.

اختارت أغلبية الناس اللجوء إلى المساجد أو أماكن إقامة موقتة، والقليل منهم واصل رحيله إلى حلب، وأقل من القليل اختار استئجار مأوى. ولا أدري إلى الآن ما كان الموجِّه والفكرة اللذان دفعا والدي إلى أن يختار الذهاب إلى داريا، وهي قرية كبيرة في ظاهر دمشق. وقد ضمتنا تلك القرية وعائلات أُخرى قليلة من قريتنا، وأسبغ أهلها كل ودهم ومحبتهم علينا، وبها مكثنا اثني عشر عاماً متواصلة، ولولا حالة النزوح التي كنا فيها لاعتبرناها أجمل أعوام شبابنا وحياتنا. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf